لقاء مع ستالين في مكتب قصره

حلمي صابر - جمادى الآخر 1444هـ



قلبي قلب أديب وشاعر
لا أحسنُ الشعرَ والأدبَ ، لكنني أتذوقُ بعضهما
وعيناي عينَ رسَّامٍ
حتى عيناي لا أحسنُ رسمهما
وعقلي عقلُ باحثٍ
يربطُ السبب والنتيجة بمتعلقهما
النتيجة لا يسببها سبب واحد ، بل كثيرُ من الأسبابِ المشتركة
في علم التجريب يسمونه مُتغيِّر
أية نتيجة لا يصنعها متغير واحدٌ ، بل أكثرَ من متغيرِ
هذا المتغير يكثرها ويزيدها ، وذاك المتغير ينقصها

هذه مقدمةٌ للقائي :
نحن خليطٌ من عقل وقلب وما بينهما وما معهما
عِدَّها المقدمةَ الأولى .

المقدمة الثانية :

لم أعطِ قلبي وعقلي عبوديةً إلا لخالقهما

متبعا ومتشبها بنبيي

اللهم يا رب عليه سلم وصلِّ

بفهم سلف الأمة الصحابتي

رضي الله عنهم وعنكَ وعني

أعيشُ على الأرضِ ، مع البشرِ

بين أمينٍ وخائن وما بينهما

وبين مسلوبٍ وسالبي

وبين مظلوم وظالمي

وبين فقير وغني

وبين عجوزٍ وصبي

لست باشتراكي ولا رأسمالي . هذان مصطلحان اقتصاديان ؛ لئلا تصنفني.

ولستُ شيوعيا ملحدا

ولستُ للرب مثلثا

أمَّا عابد الأوثان والقبورِ ، فهذا خارجُ الحديثِ والحسبةِ

أقولُ لك :

لستُ بأحمقٍ من السهولة تلعب بعقلي ؛ القرآنٌ نورٌ نورَّني.

عرفتُ به تاريخ الإنسانِ والأرضِ بيقينٍ كأنه أمامَ عيني. فلن تخدعني

لم أقصدْ خداعك في سلبِ مالي

تريدُ مالا

خذهُ بأرخصَ مما تشتري

أهبهُ لك

فاقبلْ هديتي . فليس الحديثُ عن خداع المالِ

أقول : يكفي ما تأخذ من الضريبةِ

ليستِ الضريبة هديةً ، هي غصبٌ عليه غصبتني

نورُ القرآنُ يحوطني
ونور السنةِ يلفني
(ابتسمتُ)
كأنكَ بديني حمَّقتني
اعتدتُ على هذا في زمن حبس العقلاء والشيخ والعالمِ
المغنّي في الشارع يغني
والفتاة تخلعُ مالا يختلعي
طَرِبتْ ،
إذا لم تطربكَ المغنية ، فستخلعُ ملابسها قطعةً قطعةً لتنطربَ وتنطربي
والشابُ التصقَ بها ، والفتاةُ اعتلتْ المغني
هذا ليس في لندن متشرشلا ولا عند ستالين في الروسية ولا عند ريجان في الأمريكيتي
هذا في بلاد المسلمين والعربِ
الله أكبر
يا راقصا ، ارقصْ فهذا زمانك
زمنُ رقصِ الدورانِ حولَ الكرسي
خذْ راحتكَ :
ارقصْ
غنِّ
في الشارع وبين الملأ
لن أتعجب ، حتى لو رقصتم في الأقصى وفي حرم المدينة وفي مكة الحرمِ
بل وعلى الكعبةِ
ما عاد أحدٌ منكم في الحياء يستحي

كان دمك ، دمُ مسلم عربي
ودمك اليوم ، دمُ في دهاليز الشرق والغربِ يجري
ليتكَ أخذتَ مصنعه
أمَا أخذتَ اختراعهُ وإبداعهُ في كل أمرٍ تقني
إنما استوردتَ الرقصِ ، تبا لك من راقصِ
ما عاد أحدٌ منكم في الحياء يستحي

المدارسُ تشتكي
في الصَّفِ ، ألفُ طالبٍ
ومنهج الإسلام والعربية طالهُ الحذفي
بالله أخبرني كيف يفهمي ، كيف لأمته ينتمي !
مدرجات الملاعب تتسعُ
ولها نبني ونعتلي
عجبٌ ، كيف لا ينقضِ منه عجبي
العالِمُ محبوسٌ
والشيخُ الربانيُ في سجن العقربِ
وأنتَ في الشارع ترقصُ وتغني
ليس زماننا ، زمنَ دينٍ وما تعقلي،
بل زماننا ،
اطلبْ فيه ما تشتهي
تريد المغنية التي تخلع حتى مما لا يخلعي
حالا
طائرتها في السماء
ستحطُ في كل بلد عربي. حتى مدائن النبي صالح عليه رب سلم وصلّ
حَطَّتْ طائرتها ، هيَّا : اخلعي ، ارقصي ، غنِّ

اتعظْ يا راقصا
تراها تغني على مهلكة
على عذابٍ
من الجبلِ خرجَ جملٌ ، كما قالَ المؤرَّخ
كأن قلبكَ أقسى من جبل
قلبكَ في ظلامٍ
وعلى سمعكَ وبصرك ظلامٌ
جسدك إلى مكة متجهٌ
وقلبك على المرقص ، مترنحٌ ، وثمِلٌ يغني
ما عاد أحدٌ منكم في الحياء يستحي

المقدمة الثالثة :

سألتُ ستالينَ :

يقولون عنك أنك قتلت عشرين مليونا ؟

هل هذا صحيح أم كَذِبُ الرأسمالية المعتادُ في الحربِ الباردةِ الناعمةِ

كلانا كاذبٌ بهذا أجابني

وعلى العالم نكذبي

كلنا طغاةٌ

وإذا أردتَ الدليلَ فهو عندنا في مكاتبِ الكي جي بي

كل رئيسٍ بشعبهِ في لعبٍ

افهمْ هذا : العَالَمُ قِطعةُ شطرنجٍ

فينا الملك وفينا الوزير والقلعة والفيل والجندي

كل بقعةٍ مربعة بمفردها ، دولةً ، كل مربع صغير لعبة لدولةٍ

واللعبة الكبرى من يديرُ كلَّ الطاولةِ

ملكان أو ثلاثة وخلفهم رؤوساء دول وجمهوريات

هذه هي اللعبةُ التي جميعنا يلعبُ.

وبشعوبنا نلعبُ ، ونقتلُ ، ونحبسُ وفي سيبريا محلُ النفيِ

كسجونكم ، تنفونَ فيها كما ننفي ونُفني

هذه هي الحقيقة يا عربي

نلعبُ في بلدانكم

ورؤوساكم معنا في اللعبِ

لا تجدْ في الشطرنج ، ثعلبا مكَّارًا

لكنهم في الواقع كثيرون

ثعالبَ وذئاب وأسود وحيات وعقربي

كلنا على شعوبنا سمٌ

مَنْ مِنْ سُمِّنا يسلمي

تركته في مكتبهِ يراجع قائمة القتل ويحصي
وخرجتُ من عندهِ خائفا أن يضع إكسًا على اسمي
الإكس ، قتلٌ . وهل سأعرفُ لماذا قتلني . لكنه مطمئنٌ ؛ فلن ينافسَهُ على روسيا عربي .
لكنني محتاطٌ ؛ فلا تعرفُ بعد زيارته ، أتصيرُ مقتولاً أم في بيتكَ أم في الحبسِ
واضعًا في ذهني: بعد زيارته قد اختفي
لا أمنَ عند رئيس رؤوساء الأمنِ
ستالينَ مرعبٌ ، ولكنه مرعوب حتى من طعامٍ على ملعقةِ
حَذِرًا من سُمٍّ في الطعام ، كل الذين حوله لا أمانَ معهم .
المذهبُ : إذا لم يقتلك ، فاقتلي
ستالينَ خائفٌ ؛ فَطوقَّ القصر بـ ثلاثمائة جندي
أصحابه ، رفقاؤه هم أعداؤه
فعاشَ في قصره وحيدا ، ومات لوحدهِ
هذه حياة عاشق الكرسي

يا ستالين:
بعْ فينا واشترِ
لَم غضبتَ بمنادتك ستالين ؟!
أتحسسَّتَ رأسكَ كما قالَ المثلُ المصري
أتشعرُ بأنك ستالين ؟!
لا يذهبْ ذهنكَ بعيدا
لا تظننَّ أنني عنيتُ رئيسَ دولةٍ ورئيسَ دائرة ورئيسَ ورشةٍ
كلا
كلنا ستالين
يصغرُ ويكبرُ
ويزدادُ وينقصُ
وحدة قياس الستالينية : القتل والحبس وإلى ثلج سيبريا الطردِ والنفيِ

أكرُر لم أقصدك
إنما قصدتُ الأسيوي والأفريقي والاسترالي ومن في الأمريكيتين والأوروبي
كلكم ، رؤوسكم مرتفعة في مكانٍ
ونفسُ الرأسِ في مكانٍ آخرَ منخفضي
يا ريِّس ترفع رأسك علينا
وعند ذاك تطأطئِ
وعند من طأطأتَ
هو أيضا لغيره ينطئطي
حتى المترشح للرئاسة يطنطئطُ
للمنتخبِ
يسردُ برنامجه في الليل ، وفي صبح الرئاسة كل ذلك ينمحي
كلكم هكذا ، عبيدٌ
في سوق الرئاسةِ
تعبدون بعضكم
الواطئُ عبدٌ لمن يعتلي

كما قال ستالينكم الأول فرعون لموسى عليه الصلاة والسلام:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الشعراء: ٢٩

جنودك:
ليبرالي عميل في الصحيفةِ
وشيوعيٌ متحزبٌ للحزبِ ، بدتْ عليه علامات الخرَفِ
وإعلاميٌ عميل للرئاسةِ
وعملاءُ خدمٌ في السفاراتِ
وجاميٌ تَسلقَّ بالجامية
حتى بدينه يعبثُ ويشتري
ومِسْبارٌ ، في المتحدةِ ملُفقا مُتسمبرًا
الجاميُ عميلٌ في الداخل ، والمسبارُ في العمل الخارجي

قتلتم ملايين البشر حربا
في أرضكم ، وفي كل شبرٍ على الأرض
ثمَّ ماذا ؟!
رجعَ كلُ منكم إلى مكانهِ الأوَّلي
إذن لماذا حاربتم بعضكم !
الأطفال ، والنساء ، والرجال ، والشيوخ
حتى الأحياء في البحر والأرض والسماء
قُتلوا ؟! بأيِّ ذنبٍ قتلوا ؟
المشرَّدَون ، لماذا شرِّدُوا ؟
أضلنَّا قولُكَ :
" كيف تعيشون بدوني وبعدي " ! هذا المبدأ الستاليني الذي قتلنا ، والذي هو تقتفي ؟!

اختلطَ قلبي بعقلي
لم أتهْ بينهما
سجلتُ للتاريخ متاهتكم ومتاهتي
قال لي صاحبي : اخفضْ صوتك ؛ لا يسمعنا أحد
(ابتسمتُ له)
قائلا: ما بك ! ، أنتَ لستَ في بلدٍ عربي
بلغَ خداعكم
حتى في الأمثالِ
جعلتم للجدرانِ أذانًا تسمعني
رعبٌ في كل مكان

سبحان الله
كنتَ نطفةً
واليومَ كلنا في عينيكَ
نُطفا
احبسوه ، عذبوه ؛ هذا أتلفوه ، وذاك أعدموه ، وذلكم في مياه الصرفِ غطسوه
كما قال الجامي : أليست طاعة ولي الأمر عبادة ؛ فاعبدوه

سبحان الله
أنْ ظننتَ نفسكَ ربا
بل ظننت نفسك للربِّ ربا
حرمتَّ حلاله
وحللتَّ حرامه

عجبا ما أطغاك
من أنتَ
من خدعَك
أمْ تُراكَ ، لنفسكَ خدعتَ
كل الكراسي ستذروها الرياح
كله رمادٌ
عجبا كيف من الرمادِ
نارا أشعلتَ
ليست هذهِ نارٌ
إنما الوهمُ الذي توهمتَ

المقدمة الرابعة :
مشفقٌ عليك ، وناصحٌ لك ، ومحبٌ للخير لك
اصمتِ المغني
واسترِ المغنية عن التعري
وحرِّر الشيخ والعاقل والمستشار والقاضي من الحبسِ
واسمع الكلام بأذنيك
وأرسله إلى عقلك
وأعقله بقلبك

ولا تجعلْ مسار السمع
من الأذنِ إلى اليدِ والحبسِ ، بلا مرورٍ على العقلِ

جنديك يريد نجمةً جديدةً بتعذيبي وحبسي
بخمسين دولارًا يبتاعُ فينا ويشري

يا سّجانا :
كرسيكَ الخشبُ سيهترئ
والكرسي الآخرَ بالصدأ متغطّ
أرأيتَ كرسي الرمادِ في أعلى الورقةِ !

جاءكَ في القرآن العظيم النبأ
أين فرعونُ ؟ أين قارون ومن طغى واستكبر وعلا
رحلوا ،
وأجارهم عبرة لمعتبري

سألني ستالين : ما بكَ ؟
قلتُ لك كأنك قرأتني
أمشي وأحملُ في صدري مشاعري
أتعذبُ
الشيخ والعالم والعاقل محبوس
حبسهُ وزيرُ السجنِ الطاغيةُ المفتري
قال لي : بالتأكيد أنك لا تقصدني ؟
قلت له : ما عدتُ ادري ، لكنهم على خُطاكَ أغلبهم يمشي
الألوانُ تكتبني
والحروف تلونني
رافقني إلى الباب ، وقال لي : اصبرْ ، ستتعبُ يا ولدي
خرجتُ من عنده متعجبا : كيف قال ستالين يا ولدي ؟!
أفي قلبه شفقة ؟ أَمْ أنه كان يخدعني !

أفقتُ من تفكيري . وفي الجهة الأخرى من الأرضِ صخبُ الموسيقى والحفلةِ
خَلَعَتْ المغنيةُ قطعةً ، وتعرّى معها كلَّ متعرٍّ

باعَ نفسه ، بحفنة دولارات
غَنَّى المغنيُ أغنيته :
نبيعُ فيكم ونشتري ؟!
صَفَّقَ الجمهورُ : " أعِدْ ، أعِدْ " قالوا للمغني وردَّدوا معهُ : بعْ فينا واشترِ

المقدمة الأخيرة :
أخذتُ فرشاتي وقلمي ، ورسمتُ رمادا
كان ذلكَ هو الكرسي
مزجتُ فيه تعبيري ، مزيج عقلي وقلبي

خرجتُ من عند ستالين ، وصلتُ مشارفَ قصرهِ
وعند الباب وقفتُ ، والتفتُ
وسألتُ القصرَ :
مضتْ مائة عام على البلشفية
ماتَ لينين مُنظِّرها ، وتبعه بالموتِ ستالين بإلحاده وشيوعيته مُنفِّذها
واليوم رجعتْ الأرثوذكسيةُ النصرانية ببوتين الذي أحكمَ بوتنتها
وصارت روسيا سوقًا عالمية
ماذا حصدتْ أيديكم يا شيوعيون ! سوى الإتلافُ والقتلُ والتلفِ
مضتْ أحزانُ المظلومين والقتلى ، ومضتْ آلامهم .
وبقيتْ العبرة !
كأنك في صلاة وتفكرُ فيما الإمام يقرأ ،
وبجانبك صغيرٌ يعبثُ بصلاتكَ بالحركة والفوضى . لا يفهمُ ما الإمامُ يقرأ !
كعبثكَ اليوم ، الأمر جِدٌّ وفيه عبثْتَ !

سيموتُ المسجونونَ المظلومون ،
وسيموت الظالمونَ سجَّانوهم .
وسنموتُ أنا وأنتَ ،

أنا لستُ على الإسلام قلقا ، ولا على نفسي قلقا

كلنا مسافرون ، كلنا راحلون
وقوفنا قليل في هذه الحياة الدنيا
فهي ليست محطتنا
لا زلنا في القطار راكبين
أبقانا الله بدينهِ في دينهِ راكبين
اللهم آمين
بعضنا لم يركب القطار
بعضنا ركبِ وتركه
وبعضهم لم يركبه ألبته
وبعضهم ينتظرُ الوصول
وبعضهم كان قاطع طريق ، عن سكةِ القطارِ أرادَ أن يقطعنا

إنما أنا قلقٌ عليك
سيدوسكَ التاريخ ، وكما داسَ غيرك وغيري
مرَّ التاريخُ ومضى ، وسيمرُ عليك ويمضي ، وستذروُ رمَادكَ الرياح

كتبَ التاريخُ عنك
بنيتَ البنيان ، وهدمتَ الإنسان
وحاربتَ العلماء والشيوخ وقبلهما الإسلام
صفحتكَ في تاريخنا الحاضر سوداء
وفي تاريخ الغرب والاستعمار ، صفحتك بيضاء
وإن أظهروا غير ذلك ؛ لأنهم يريدون المزيد مما يجري
ليتكَ لا ترضَ لنفسك في تاريخ المسلمين بهذه الصفحتي

بقي نصف ساعة على صلاة الفجر ، وغدا صلاة الجمعة
سكتَ المغني بأغنيته " بعْ فينا واشترِ "
وهدأ السكارى والمخدَّرون
قواريرهم على الأرض ، بقايا لفائف سجائرهم على الأرض
ملابس داخلية وخارجية عند أطراف الحفل

وشبابٌ مترنحون على الجدران ،
وفتياتٌ تائهات
وقفَ الصخبُ

اليومُ جمعة ، وخطب الخطيب بخطبته من تعميم الوزير عنوانها :
تربيةُ العصافيرِ بالفطيرِ المشَلتِتْ

سؤالٌ : ما هذا الذي يجري ؟
أبكاني الجوابُ ، وكيف لا أبكي !

وأنا لا أصغ إلى الخطيب ، اسمعُ صوته فقط ،
لم احتطْ بقطنٍ في أُذني ؛ لأن تعميم الوزير فاجئني

تذكرتُ عبارةً والخطيب يخطب : قُتِل سعيد بن جبير رحمه الله والناسُ بحاجة إلى علمهِ ،
وقالت نفسي : سُجِن الشيوخ والعلماء ، والناسُ بحاجةٍ إلى علمهم

يا خطيبَ الجمعة : ما هذا الذي يجري ؟! ،
تدري وكأنك لا تدري ؟!
أيها الجاميُ : رميتَ كتبَ العلماء المحبوسين عند الزبالات ، وأحرقتَ أشرطتهم
وفي معرضِ الكتاب ما اكترثتَ بكتبِ الجنسِ والإلحاد ،
على كتبِ الشيوخ وأشرطتهم تفتري ! ، حرفتُ نظري عن الجامي ؛ فالنظر إليه بلاء وفتنة ؟!

ظهرتْ صورةُ ستالين أمامي وكأنه قال لي :
أكذوبةُ تُهَمِهم كتهمي التي لا معنى لها : تحالفٌ مع ألماني
لا تلعبْ لعبتنا يا ولدي !.

راقتْ لي نصيحتهُ ، فواصل الخطيب خطبته وأنا لا أسمع ولا أصغي

انتهى